ماكسويل أندرسن

مسرحية شمعة في مهب الريح

مؤلف هذا الكتاب هو ماكسويل أندرسن الكاتب المسرحي الأمريكي المعروف، وهو من أعمدة المسرح الشعري في أمريكا.

بدأ حياته صحفيًا ثم أصبح كاتبًا مسرحيًا محترفًا حوالي عام ١٩٢٠ وقد كتب عدة مسرحيات شعرية ونثرية كان من أهمها مسرحيته "عذراء اللورين" التي ترجمت إلى اللغة العربية في مشروع الألف كتاب ولاقت نجاحا كبيرًا عند عرضها بالولايات المتحدة. وتدور معظم مسرحياته حول موضوع البطولة سواء استمد موضوعاته من التاريخ كموضوع جان دارك في "عذراء اللورين" وموضوعات البطولة في الحرب في مسرحياته "ثمن المجد" ومسرحية "شمعة في مهب الريح". ولا تنبع أهمية هذه من كونها نصا مسرحيا ممتازا، فالمؤلف ماكسويل أندرسن، برغم ما له من مكانة مرموقة في

المسرح الأمريكي الحديث ليس من مؤلفيه البالغي الامتياز، وإنما يأتي ذكره بعد كتاب تنيسي وليامز أو أرثر ميللر ولكن الأهمية الحقيقية لهذا الكتاب بوصفه وثيقة مكتوبة وليس نصا ممثلا، تنبع من المقدمة الطويلة التي كتبها المؤلف لمسرحيته وأسماها "على سبيل التقديم" والتي تعرض في شيء من التفصيل لنظرية المؤلف في الفن المسرحي على وجه العموم ولما يجب أن يكون عليه أبطال المسرحية الجيدة بوجه خاص. وقبل أن يبدأ ماكسويل أندرسن في تعريفنا بنظريته الدرامية يحدثنا قليلا عن نفسه كفنان. فنعرف أنه في عشرينيات هذا القرن وجد لنفسه دينا واحدًا يؤمن به وهو المسرح. وقبل ذلك لم يكن سوى صحفي لا يعرف عن المسرح إلا ما يعرفه أي فرد عادي ممن تقتصر علاقتهم بالمسرح على مجرد المشاهدة. ولكنه في خلال هذه الفترة كتب مأساة شعرية حين كان يمل من كتابة التحقيقات الصحفية وقدمها لمنتج كانت لديه الشجاعة لإخراجها على خشبة المسرح لسبب لا يدريه المؤلف ذاته. وقد فشلت هذه المسرحية بطبيعة الحال، ولكن بريق المسرح لم ينطفئ بعد ذلك أبدا في عين المؤلف الناشيء فكتب بعد ذلك عدة مسرحيات شعرية ونثرية أصاب

بعضها الفشل. ونجح البعض الآخر لسبب لا يدريه المؤلف أيضاً، فهو يعتبر أن مشكلة النجاح الجماهيري لأي مسرحية سر من الأسرار الكونية التي لا يستطيع مخلوق فهمها. ولا يهمنا الآن أن نعرض لقيمة هذه المسرحيات، فمعظمها جيد باعتراف كبار نقاد الدراما في أمريكا، كما أن مؤلفها يعتبر من دعائم المسرح الشعري في تلك البلاد، ولكن عملية الممارسة المسرحية كونت في ذهن المؤلف شبه نظرية في الفن المسرحي هي التي يعرض لها في مقدمته لمسرحية "شمعة في مهب الريح" وهي في جملتها ليست بالجديدة تمامًا. وإنما تمثل- في رأيي- موقفا يتخذه المؤلف من الكتابة المسرحية مهما كان مخطئًا أو ساذجا فهو تعبير عن وجهة نظره على أية حال. ولن نناقش النظرية الآن فليس هذا مجالها وإنما يهمنا أن نعرض لها في شيء من التفصيل.

يقول ماكسويل أندرسن : "إن ممارستي للمسرح والكتابة له جعلتني أكتشف بعض القواعد التي لابد أن تلتزم بها أي مسرحية كما أضفت لاكتشافي الخاص بعض آراء القدماء في هذا الصدد ومن جماع هذا وذاك استطعت أن أكون فكرة واضحة عن فن كتابة المسرحية.

وفي غير قليل من التواضع يبدأ المؤلف في سرد ثمانية أصول لابد أن يلتزم بها الكاتب المسرحي في أي مسرحية يكتبها. يقول أندرسن:

١ - يجب أن تكون قصة المسرحية هي قصة ما يجرى في عقل أو قلب شخص ما سواء كان رجلاً أم امرأة، فلا يمكن أن تعالج المسرحية. بادئ ذي بدء، حوادث خارجية، وإنما تصبح هذه الحوادث الخارجية رمزا لما يجرى في عقل البطل أو البطلة.

٢ - لا بد أن يمثل بطل المسرحية قوى الخير ولابد أن ينتصر في النهاية، أما إذا كان شريرًا فلابد أن يستسلم لقوى الخير في النهاية، أما إذا كان لابد من انتصاره فيجب أن ترينا المسرحية أن الكاتب لا يوافق على هذه الشخصية.

٣ - القصة في المسرحية لابد أن تصور صراعًا بين قوى الخير والشر في داخل الفرد الواحد. ولابد أن تطابق فكرة الخير والشر في المسرحية فكرة النظارة عن هاتين القيمتين.

٤ - لا يمكن أن يكون البطل في المسرحية إنسانًا مكتملا، إذ لو كان مكتملا لما أمكن أن يتطور من خلال أحداث المسرحية، كما لابد أن تكتمل شخصية البطل خلال أحداث المسرحية حتى إذا جاءت النهاية ازداد إعجابنا به.

٥ – لابد أن يكون البطل في المسرحية شخصا غير عادي. إذ لا يمكن أن يكون رجل الشارع بطلا لمسرحية إلا إذا كان يملك من الصفات ما يثير إعجاب الجمهور.

٦ – تكتسب المسرحية صفة الامتياز دائمًا من عرضها لصراع بين القيم الأخلاقية في المحك الأول وخرج من هذا الصراع أفضل مما كان.

٧ – لا بد أن يكون صراع القيم الأخلاقية صراعا فاضلا بمعنى ألا ينتصر الشر في النهاية وإلا لما احتمل الجمهور المسرحية.

٨ – يجب أن تؤكد المسرحية بعض الصفات الإنسانية التي يتفق عليها الجميع فالرجل لا بد أن يكون صلبا إيجابيا كما لابد أن تتميز المرأة بصفة الإخلاص والعاطفية التي تلون سلوكها.. وهلم جرا.

وبرغم أن معظم هذه الملاحظات أو المبادئ المسرحية يبدو ساذجا إلى درجة كبيرة فإنها مهمة إلى درجة بعيدة في التطبيق على مسرحيات أندرسن.

فأندرسن، أولا وقبل كل شيء، يكتب المسرحية الشعرية مما يفرض عليه اختيار موضوعات معينة لا تكاد تحتمل واقعية الحياة اليومية- كما لابد أن يفرض هذا الشكل على أبطاله صبغة بطولية معينة ترتفع بهم عن مستوى الفرد الواقعي

العادي إلى آفاق شعرية تلعب فيها القيم الأخلاقية والصراع بين الخير والشر دورا كبيرا، ولذلك فهذه النظرية- إن جاز أن نسميها نظرية- أخلاقية بالدرجة الأولى تعتمد على صراع قيم أولية بدائية في نفس الإنسان، وهو صراع يفرضه شكل المسرح الشعري بمفهومه البسيط. ومن هنا نجد أن الشكل يفرض الموضوع عند الكاتب أندرسن ويجعله يعتقد بأن "الهدف من المسرح هو أن نكتشف ما يثير الإعجاب في الجنس البشري" وهذا بطبيعته يفرض صراعا بين القيمتين الأوليتين: الخير والشر، كما يحتم انتصار الخير حتى يتم اكتشاف "ما يثير الإعجاب في الجنس البشري" .

وعلى الرغم من أن المسرحية التي نعرض لها اليوم والتي كتب لها هذه المقدمة ليست مسرحية شعرية فإننا نجد فيها أصداء كثيرة من آراء المؤلف في الفن المسرحي. فالقصة تصور البطولة وتعرض نماذج من البشر ربما لا نقابلهم في حياتنا اليومية وإنما هم قيم أخلاقية مجسمة، استطاع المؤلف بكثير من البراعة الفنية أن يكسوها باللحم والدم ويقنعنا بوجودها على خشبة المسرح ثم يثير تأملنا بعد إسدال الستار على الفصل الأخير فنجرد هذه الشخصيات من ملابساتها الواقعية

حتى تصبح أمام أعيننا رموزا للصراع بين قوى الخير وقوى الشر في كل زمان ومكان.

ولنبدأ بعرض المسرحية ذاتها لنرى ما إذا كانت تحقق أفكار المؤلف أم لا.

اختار أندرسن لمسرحيته حادثة غزو النازي لفرنسا عام ٤٠ - ١٩٤١ واحتلالهم لها.. والقصة برغم ذلك ليست قصة حرب. وإنما هي قصة حب، تبلور الصراع بين الوطنيين الفرنسيين أو أحد أبطالهم في طلبه لحرية وطنه ولحقه في الاستمتاع بالحب وبين جنود النازي الذين يمثلون قوة شريرة تسحق كل شيء في طريقها بالقوة ولكنها تقف عاجزة أمام الحب- أو الخير- الذي يستطيع وحده أن يقهر القوة الشريرة.

يرفع الستار عن الفصل الأول فإذا نحن في ركن من الحدائق الخلفية لقصر فرساي بباريس في ساعة مبكرة جدا من أحد أيام سبتمبر عام ١٩٤٠ وقد غزا النازيون فرنسا.

وتدخل مادلين جست وهي ممثلة سينما أمريكية ذائعة الصيت نعرف أنها جاءت إلى فرنسا طلبا للراحة ولكي تترك لنفسها فرصة التفكير في عرض جاءها للزواج من "ملك الراديو" الأمريكي .. ولكنها في خلال إقامتها بباريس وقعت في

حب أحد الفدائيين الفرنسيين ويدعى راءول سانت كلود ومن خلال الحوار بين مادلين جست وإحدى صديقاتها الأمريكيات وقد قابلتها بالصدفة في حديقة فرساي. نعرف أن مادلين لا تريد أن تغادر باريس بالرغم مما بها من غبار الحرب وجو الإرهاب الذي فرضه الألمان.. وبرغم أنها لا تعرف شيئًا من أخبار حبيبها الذي فقد ضمن من فقدوا من الفدائيين الفرنسيين نتيجة لتحطيم الجيش الفرنسي وانهزامه أمام جيوش الألمان.. والحب بين مادلين وسانت كلود حب رومانتيكي إلى أبعد الحدود.. حب من النظرة الأولى كما يسمونه ولكنه ملئ بالتضحيات المثالية.

تقول مادلين عندما تسألها صديقتها كيف وقعت في حب الفدائي الفرنسي "لست أدري.. لقد ذهبت ذات ليلة إلى مسرح الكوميدي فرانسيز فجلس أحد الضباط إلى جواري، وأعارني نظارات الأوبرا المكبرة ثم أوصلني إلى الفندق بعد ذلك. هذا كل ما في الأمر.. فلم نقل شيئًا.. فقط ذهبت لأشاهد مسرحية موليير مرة أخرى في الليلة التالية ففعل هو نفس الشيء".

أما ما جاء بمادلين إلى الحديقة فهو شعور خفي بأنها قد ترى حبيبها هناك.. وبشكل منطقي" أتعلمين أن هذا مكان

جميل للعشاق.. هذا الركن من الحديقة.. لقد قص لي راءول أسطورة عنه .. يقال إن المرء يجد ما فقده هنا.. فإذا انتظرت امرأة هنا وطلبت شيئا بإلحاح كاف، يعود حبيبها أينما كان.. ويأتي من هذا الطريق" وبالفعل يظهر راءول سانت كلود على خشبة المسرح.. وتعرف أنه قام بمخاطرة ليرى مادلين بعد أن قام بمغامرة شبه فاشلة في المساء السابق.

ونعرف أنه يقوم بنقل الفدائيين في غواصة من مكان إلى مكان وكاد الألمان يحطمون غواصته ولكن لهب الحب- تلك الفكرة الخيرة المجردة- كان كفيلا بإنقاذه وصيانته طوال الطريق حتى حديقة قصر فرساي.. إنه يقول لمادلين : "في كل مرة كنت أشرف على اليأس، كنت أجد نفسي أفكر فيك فيكون ذلك كافيا لإنقاذي لقد كنت آلهة يداك ممدودتان إلي – أستطيع أن أحس بك هنا لتنقذي حياتي" وبذلك لا يصبح الحب بين مادلين وراءول- داخل إطار المسرحية- حبا بالمعنى المتعارف عليه وإنما فكرة مطلقة تحارب فكرة مطلقة أخرى.. وبينما هما على هذه الحال تفاجئهما دورية من الجنود الألمان ويتم القبض على راءول سانت كلود.. وينتصر الشر ولكن مؤقتا إذ أن الظلام مهما يدلهم ومهما يتكاثف فإن شعاع النور

المنسكب من عاطفة الحب بين البشر كفيل بتشتيته. يقول راءول لمادلين: "كلما وجدت نفسي محاطا بالظلام أفكر فيك فإذا بالحياة تتدفق في عروقي فأحزم أمري وأتشجع وأمضي في طريقي.. كان ذلك دائمًا هو الطريق السليم للتغلب على المصاعب".

ويذهب الجنود بسانت كلود ويفترق الحبيبان إلى لقاء فهما متأكدان من حتمية اللقاء برغم إمكانيات الموت الرابضة في كل مكان.. ويهبط الستار على الفصل الأول.

فإذا كان الفصل الثاني نجد أنفسنا في محطة مياه مهجورة بإحدى ضواحي باريس استخدمها الألمان مقرا لمعسكر الاعتقال وعندما يرتفع الستار نجد مكتب القائد الألماني، أرفرت وسط الأسلاك الشائكة، ويعرض علينا المؤلف قليلا من الأفكار النازية . وتقديس الجنود لفكرة الدولة والفوهرر وقبولهم لها حقيقة علوية وذلك عن طريق اختيار أحد الجنود الألمان لإلحاقه بفرقة جنود التعذيب.. ثم تدخل امرأة عجوز وزوجها يريدان زيارة ابنهما السجين السياسي المعتقل ولكن القائد الألماني الخبيث القاسي القلب لا يسمح للمرأة وزوجها برؤية ابنهما بعد أن قطعا مئات الأميال حتى وصلا إلى معسكر

الاعتقال، وتدخل مادلين جست ونعرف أنها قد رشت أحد الضباط الألمان لكي يحصل لها على إذن بزيارة راءول سانت كلود، ولكن أرفرت القائد النازي يخيب أملها حين يقول لها إن الدولة تدبر عملية الرشوة هذه بالاتفاق مع مرتكبيها" حتى تتمكن الدولة من أداء وظيفتها" كما يقول.

ويستجوب القائد مادلين.. يسألها عما إذا كانت زيارتها لراءول لأسباب عاطفية؟ فتستنكر مادلين حتى مجرد الاعتراف بحبها وسط كل هذه الشرور.. إنها تقول بعد أن يسألها أتحب راءول أم لا؟.

"يبدو لي أن أي إجابة عن هذا السؤال في هذا المكان وأمامك تقلل من شأن علاقتك" ولكن أرفرت يرفض طلبها بحجة اللوائح والقوانين، ولأن راءول من السجناء الخطرين.. ولكن صوت الحب.. الذي هو أقوى دائما من شرور الحرب يرتفع في شخص مادلين جست فنراها تصرخ في أرفرت: "كولونيل أرفرت.. لا أستطيع أن أقبل ما قلته على أساس أنه قول نهائي. ليس من السهل أن يتحدث المرء عن الحب في هذا العالم الجديد الذي صنعتموه- هذه الأرض الجرداء المليئة بالأطفال المشردين وصرخات الألم. أنا لا أستطيع الدفاع عن حبي ولا يسعني إلا أن

أقول إنه منذ أن أخذتموه لم يعد لي أمل سوى الأمل في دعوته.. ومنذ أن عرفت أنه هنا.. أصبحت جدران هذا السجن القاسي الكئيب لا تفارق مخيلتي أينما ذهبت. ومنذ أن آمنت بأنه لابد أن تأتي اللحظة التي أراه فيها- ظل حبي معلقا بالأمل في هذه اللحظة" ويحاول الكولونيل أرفرت أن يقطع عليها كل أمل في رؤية حبيبها بل في إمكان استمرار حياته على الإطلاق، وينصحها بأن تتخلى عن هذا الحب وتعود إلى أمريكا في أول سفينة. ولكن جذوة الحب المشتعلة في صدرها والتي تبعث فيها الأمل في عودة كل ما هو جميل وخير في الحياة يجعلها تصرخ في وجه القائد النازي: "سأبقى.. وسأنتصر" ويهبط الستار.

ثم ينتقل بنا المؤلف إلى حجرة مادلين جست بالفندق التي تسكنه مع صديقة أخرى لها.. وتظل الصديقة تبعث في نفسها اليأس من هذا الحب وتحثها على العودة إلى أمريكا في أقرب فرصة ولكن مادلين لا تيأس بل تأخذ تدبر مع أحد الجنود الألمان من حامية السجن خطة لتهريب راءول بعد أن قدمت للجندي رشوة كبيرة.. ويدبر هذا الجندي خطة لتهريب راءول ولكن بعد أن يخبر سلطات السجن بالخطة ويأخذ من مادلين النقود ويقوم بتهريب راءول ولكن السلطات تقبض عليه في اللحظة الأخيرة وتعيده إلى السجن مرة أخرى وقد عظم جرمه

وتخسر مادلين نقودها.. ولكنها لا تيأس، بل تقوم وحدها بدراسة جميع القوانين واللوائح النازية علها تجد منفذا قانونيا تستطيع عن طريقه أن تقابل حبيبها وبالفعل تنجح في ذلك وتتم المقابلة بينها وبين راءول.. وتقول له مادلين "أرى أننا خدعنا" ولكنه يجيبها بأن وجودها معه دائما هو ما يجعله يتحمل مرارة الاعتقال ووحشيته" لقد عرفت مكانك.. وفي بعض الأحيان كنت أعرف ماذا تفعلين.. وكنت معي كل يوم.. تسيرين بجانبي بإصرار غريب".

ثم يضيف : "لقد انتصرنا بالرغم من أننا قد نخسر" وهذا الانتصار الأخير كما أسلفنا هو انتصار الحب على وحشية النازي انتصار قيم الخير على الشر.. برغم ما يبدو من انتصار الشر في الظاهر.. وهي فكرة أخلاقية في صميمها، تتفق- كما سبق القول- ونظرية المؤلف في الفن المسرحي وطبيعة الصراع داخل المسرحية.

obeikandl.com